طوقان ضد بائعي الاراضي ، لم تكن تعني سوى فتح الباب امام الفعل النقيض . التحرك نحو الالتحام بالارض . فحين تركز قصيدة طوقان على مفهوم « الوطن » فهي ترسم اشارات لمعنى الالتحام بالوطن ، كما في قصيدة « الثلاثاء الحمراء » : هنا يتحول الشعر الى نشيد ، لا هدف له سوى التحلق حول فعل الموت ، والوصول من داخل هذا الفعل الى الثوابت الجديدة لحركة النضال الفلسطيني :

«أنا ساعة الرجل العتيد أنا ساعة البأس الشديد
أنا ساعة الموت المشرف كل ذي فعل مجيد
بطلي يحطم قيده رمزا لتحطيم القيود »

في « الثلاثاء الحمراء » ، حاول طوقان لونا شعبيا غنائيا . أراده نشيدا ، ينقل الاحساس الشعبي ، ويصبه في قالب شعري ثم يعيده ليصنع من جديد على لسان الناس . الشاعر هنا ، ينظر الى الموت ، بوصفه حدثا اجتماعيا ــ سياسيا . فالموت هو ارادة تغيير تلتقي بارادة الله ، او هكذا فهمت الشهادة . والوطن هو نشيد تتنوع انغامه في بساطة ودون تعقيد .

ان روح الفكاهة التي تجلت في شعر طوقان ، لا تغيب عن اية دراسة جادة لشعره . فالفكاهة ، في اخر المطاف ، تخدم هدفا سياسيا . طالما كان هذا الهدف هو المحرك الاساسي لمرحلة تاريخية تميزت بالانتفاضات الجماهيرية المستمرة . فهي مع أشعار المجون (التي لم تنشر في هذا الديوان تشكل خلفية محاولات طوقان لبناء القصيدة الوطنية المتكاملة .

مع شعر طوقان ، نعود لنتذوق ، بعض معاني الكلاسيكية النضالية ، التي تأخذ معناها الفعلي في الشعر المعاصر الذي يتجاوزها . فمن خلال تجاوز هذه التجربة ، تؤشر مرحلة البدايات الشعرية على اصالتها . بوصفها بداية لا يتطور منها الشعر ، لكنه يبقى مخلصا لبعض نقاط انطلاقها .

لغة الحلم والاحتمال

في « الاخضر بن يوسف ومشاغله » ، كان سعدي يوسف لا يزال يتابع بحثه عن لغة الواقع التي تغتسل بشفافية الرؤيا الغنائية ، متجاوزة اياها الى محاولة طرح لغة القصيدة بوصفها مدخلا الى العالم ، تعيد توحيده في سياق شفافية التعامل مع الاشياء التي تصبح هنا موحدة وممتلئة بالشعر . ففي قصيدة « البحث عن خان ايوب ، في حي الميدان بدمشق » ، يرتفع التساؤل مصحوبا بعالم يتداخل في جسد الشاعر ، ومنه الى لغة الشعر ، فتصبح القصيدة علامة لتوحيد الشاعر بالشعر . أي يرسم الافق اللغوي علاماته داخل جسد الشاعر الذي يصبح جزءا من بنية القصيدة ، وتتحول شفافية اللغة الى شفافية العالم ، فتصبح انعكاسا رؤيويا للعالم ، ترسمه وتعيد صياغته من موقع تفتيت عناصره واعادة ربطها داخل بنية القصيدة ، التي تصير جزءا من العناصر المستقبلية التي يفرزها جدل الواقع الموضوعي :

« تساءلت حين دخلت المدينة عن خان أيوب
ما دلني احد
فالتففت ببعضي ونمت » .

وفي مجموعته الشعرية الجديدة « تحت جدارية فائق حسن » . يتابع سعدي يوسف خط بحثه الشعري ، يرسم لغته الشعرية من داخل عناصر الواقع الاكثر بساطة ، ويستعين بالحدث ليحقق استدارات القصيدة . فتصبح القصيدة لحظة ، او استجماعا للحظات متتالية ، يوحدها الحلم الواقعي ، والاتكاء على قدرة الشاعر في غسل لغته اليومية وجعلها بيضاء ومنحنية ، عبر استدارات غنائية تحقق ترابط عناصر الحلم ، حتى

سعدي يوسف : **تحت جدارية فائق حسن** ؛ دار الفارابي ، الطبعة الاولى ، بيروت ، آب ، ١٩٧٤ .